الإتقان في تخليص إنسانية الإنسان
نظرات في الواصلات المنهجية بين العلم والإيمان والأخلاق
في فكر بديع الزمان النورسي

د. محمد جكيب(*)

- **تقديم:**

في كل مرة أقرّأ فيها الرسائل ينتابني شعور الذي يكتشف شيئا جديدا لأول مرة، وهذه ميزة عامة تطبع رسائل النور بشهادة عدد واسع من العارفين الذين خبروا الرسائل، وميزة تطبع فكر صاحب رسائل النور الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، وهذا ليس بالأمر الغريب لأن الرسائل في حقيقتها وبصور مختلفة روح القرآن الكريم، أليست الرسائل تفسيرا من تفاسير القرآن الكريم، وهي عندي تسمد روح القرآن الكريم، وتعيد صياغة هذه الروح صياغة ملائم روح العصر وحاجاته.

بديع الزمان سعيد النورسي عمود من أعمدة الإصلاح في العصر الحديث، لكن إصلاحها يستهدف الشكل الروح، وليس معنى هذا أنه يهمل الشكل، بل إن الشكل والإطار جزء من الروح، فإذا سمت الروح، سما الشكل وارتقى.

السؤال المطروح في هذا الإطار هو كيف يمكن قراءة بديع الزمان النورسي قراءة متجددة دون اجترار ما قيل، بمعنى ما المقومات العملية التي تتيح تحليل كليات رسائل بديع الزمان النورسي وفهمها دون اجترار ما قيل من قبل؟

حل هذه القضية فيما أرى يكمن في تحليل الخطاب، وإخضاع المكونات المركزية التي يقوم عليها تصور بديع الزمان النورسي بصفة عامة لمجهر التدقيق والتشريح، نبغي من ذلك تجاوز الوصف والتعريف، وليس معنى هذا أن البحوث الوصفية والتعريفية

(*) جامعة شعيب الدكالي/ الجديد/ المملكة المغربية. jakibmoh@gmail.com

تفتقد مشروعية التواجد، بل إن للبحوث الوصفية أهمتها وهي مرحلة مهمة لفهم شخصية فكرية من الشخصيات، وخاصة إذا تعلق الأمر بشخصية مركبة كشخصية بديع الزمان النورسي وبعطاء فكري وروحي هو كليات رسائل النور، فالرسائل ونظرا لأهميتها تحتاج إلى بحوث كثيرة من أجل الاستيعاب آفاقها الآنية والمستقبلية.

- **الارتقاء الإنساني في ضوء العلم والمعرفة:**

العناصر الثلاثة التي تتمحور حولها الندوة العلمية العلم والإيمان والأخلاق، عناصر ينظر إليها البعض على أنها عناصر لا تجتمع ولا تلتقي لأن للعلم منطقه الخاص، والمجال الذي يتحرك فيه ليس فيه للإيمان والأخلاق أي دور، وهي القضية التي صارت اليوم عقيدة يدين بها عدد واسع ممن يحسبون على دائرة العلم والمعرفة. ولذلك يرفض العلم أن يصنف في خانة واحدة مع الإيمان والأخلاق، لأن خانة العلم خانة مستقلة، وخانة الإيمان والأخلاق خانة أخرى، أو بالأحرى إن عالم العلم والمعرفة، غير عالم الإيمان والأخلاق، بل يذهب هذا الاعتقاد إلى حد اعتبار الإيمان والأخلاق عائقا يعوق حركة العلم ويمنع تطوره.

موضوع العلم من المواضيع الخطيرة جدا في حياة الأمم والشعوب، ومن المعروف والجلي أن قيمة الأمم الحديثة تكمن في كيفية تعاملها مع المعرفة، فهي لازمة للتطور والنمو، ولازمة لمعرفة الكون وخالقه، والمعارف بصفة عامة قد تكون محايدة وقد تتلون بلون من يريد توظيفها والاشتغال بها وعليها.

ما يميز بديع الزمان النورسي رحمه الله بصفة عامة هو قدرته الفائقة على استطلاع المستقبل، فالمتأمل في بعض النصوص المفاتيح سيلاحظ أنه يطرح في العمق أمرين اثنين:

- الأمر الأول هو واقع الإنسانية كلها.

- الأمر الثاني هو واقع حال المسلمين بصفة عامة، لكنه عندما يطرح الحل ويقدمه، وعندما يصفه، يصفه بصفته طبيبا خبيرا متمرسا (طبيبا للقلوب) لكن للناس جميعا، وليس لفئة أو طبقة اجتماعية محددة. ومن هنا فإن الحديث عن العلم ومستقبله يثار عند النورسي بهذه الرؤية، يقول: «نعم! إن في القرآن كل شئ. ولكن لا يستطيع كل واحد أن يرى فيه كلَّ شئ. لأن صور الأشياء تبدو في درجات متفاوتة في القرآن الكريم، فأحياناً توجد بذور الشيء أو نواه، أحيانا مجمل الشيء أو خلاصته، أحيانا دساتيره،

أحيانا توجد عليه علامات. ويرد كل من هذه الدرجات؛ أما صراحة أو إشارة أو رمزاً أو إبهاما أو تنبيهاً. فيعبّر القرآن الكريم عن أغراضه ضمن أساليب بلاغته، وحسب الحاجة، وبمقتضى المقام والمناسبة. فمثلاً: إن الطائرة والكهرباء والقطار واللاسلكي وأمثالها من منجزات العلم والصناعة - التكنلوجيا الحديثة - والتي تعدّ حصيلة التقدم الإنساني ورقيه في مضمار الصناعة والعلم، أصبحت هذه الاختراعات موضع اهتمام الإنسان، وتبوأت مكانة خاصة في حياته المادية.»[١]

يؤكد هذا الكلام القدرة الفائقة لبديع الزمان النورسي على رؤية الأشياء من زاوية قرآنية صرف، وهذه الرؤية القرآنية، تتيح القبول بأن الاختراعات الحديثة واقع حاصل، ومن ثم فإن التعامل معها واجب لأن التطور والتقدم والارتقاء سنة كونية، فالنورسي لا يرفض مظاهر الحياة العصرية كما فعل بعضهم عندما رأوا في هذه المظاهر مضرة تسيئ إلى الإنسان فرفضوا التطور. النورسي ينظر إلى القضية من فسحة مختلفة هي فسحة القرآن الكريم ورحابته، والقرآن الكريم يعلن عن ذلك، لكن يحيط بضوابط، وهذه الضوابط هي ما عمل النورسي على جعلها طابعا يسم العلم والمعرفة في العصر الحديث. ويقول: «أما المعجزة الكبرى للرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وهي القرآن الكريم ذو البيان المعجز، فلأن حقيقة تعليم الأسماء تتجلى فيه بوضوح تام، وبتفصيل أتم، فإنه يبين الأهداف الصائبة للعلوم الحقة وللفنون الحقيقية، ويُظهر بوضوح كمالات الدنيا والآخرة وسعادتهما، فيسوق البشر إليها ويوجهه نحوها، مثيراً فيه رغبة شديدة فيها، حتى إنه يبين بأسلوب التشويق أن أيها الإنسان! المقصد الأسمى من خلق هذا الكون هو قيامك أنت بعبودية كلية تجاه تظاهر الربوبية، وأن الغاية القصوى من خلقك أنت هي بلوغ تلك العبودية بالعلوم والكمالات.

فيعبر بتعابير متنوعة رائعة معجزة مشيراً بها إلى: أن البشرية في أواخر أيامها على الأرض ستنساب إلى العلوم، وتنصب إلى الفنون، وستستمد كل قواها من العلوم والفنون فيتسلم العلم زمام الحكم والقوة.»[٢]

---

(١) كليات رسائل النور، الكلمات، تر: إحسان قاسم الصالحي، ط٣،/ ٢٠٠٠، القاهرة، شركة سوزلر للنشر: ٢٧٧

(٢) الكلمات: ص ٢٩٢

يؤكد بديع الزمان النورسي هنا بأن العلم سيتسلم زمام الحكم والقوة، بمعنى أن الواقع الإنساني بصف عامة سيميل إلى العلم ومن أخذ بأسبابه أخذ بأسباب القوة.

يستند النورسي في هذا على قراءته الدقيقة لواقع الحال المحيط به في تركيا آن ذاك، وقد أكد هو نفسه ذلك عندما زار أنقرة، حيث أكد بأنه رأى في غمرة الفرحة انحرافا كبيرا على مستوى المنطق المتحكم في بعض العقول بدعوى الحداثة والانفتاح والعقل والمنطق، وهذه قضية خطيرة جدا لأنها تثير الانتباه إلى عنصر مهم في حياة الأمم والشعوب، وهي قضية الهوية الثقافية، وهوية المثقف، إذ لا يخفى على أحد أن من شروط التطور والاستقلال الفكري وضوح مفهوم الثقافة والمثقف، وقيامهما على الأصول، إذ كلما كانت هذه قائمة على أسس نابعة من أصل التربة المحلية وتتغذى من مقومات الهوية المحلية، كلما كان المسير نحو التطور والنماء والاستقلال واضحا، وكلما كان مستلبا كلما أنتجت ثقافة تابعة تخدم مصالح هي غير المصالح المحلية، وهذا هو ما لاحظه النورسي في هذه الزيارة.

لقد لاحظ بديع الزمان النورسي أن هناك انحرافا في الرؤية، متشخص في تيار عارم وقوي تدعمه جهات معينة داخلية وخارجية تعمل في الخفاء من أجل تقويته، ولم يكن هذا التيار سوى تيار العلمانية التي يرتكز منهجها على جعل العقل والفلسفة الحكم والفيصل، وعلى اعتبار الرؤية الدينية رؤية ثانوية، واعتبار الارتباط بالخالق في النظرة عاملا من عوامل التخلف والتراجع الحضاري، وبالطبع فإن بديع الزمان النورسي الذي استطاع أن يلحظ هذا الانحراف كان يعلم أن إصلاح ما أفسدته أيام كثيرة وسنوات من العمل والتخطيط الذي قام به من قام به في الخفاء، لا يمكن التصدي له سوى بعمل آخر من جنس الأول، أي البناء المنهجي والدقيق أي إصلاح ما فسد خلال عقود، يلخص الأستاذ فتح الله هذه الرؤية بالقول: «نعم، قد صار النورسي طبيبا حكيما، مفكرا، وباحثا عن الحلول، وفاحصا مشخصا، ثم واصفا دواء هذه الأمراض، لزمن الفتن والهرج، كان الشعب فيه يعيش حمى الضعف الفكري والهموم الاجتماعية...إن غرس أفكار جديدة في عقل المجتمع عمل شاق بقدر انتزاع العادات والتقاليد الموروثة من الماضي بنفعها وضررها».[1]

(١) إنسان الفكر والحركية، سعيد النورسي أنموذجا، مجلة الوعي الإسلامي، ع ٥٣٨ ص ص ٨ ـ ١١: ص٨

وللقيام بهذا العمل التأسيسي، يتوجب حسب ما يمكن استخلاصه ضمنيا من خطاب بديع الزمان النورسي الإصلاحي ربط الإنسان بالمصدر وإرجاع الفروع إلى الأصل، وهو الخالق تبارك وتعالى، ذلك لأن بديع الزمان النورسي رحمه الله قد أدرك بأن الإشكال الذي تتشبث به الفلسفة الحديثة هو إشكال ربط الأشياء وفي المقدمة المعرفة والعلم والتفكير بالعقل المادي وحده، وبالأسباب وبالطبيعة. وحصر التفكير في المادة دون غيرها، وإلغاء الحقيقة الدينية والدين بصفة عامة.

لقد توصل بديع الزمان النورسي من خلاله تأمله العميق في كل هذه القضايا إلى ضرورة ربط الإنسان بكل تلك الأشياء التي يسعى إلى قطع كيان الإنسان عنها، ومن خلال استيعابه لمفهوم المثقف الذي كان التيار العلماني والتيارات الخفية بمختلف مشاربها قد أرسته، وشكلت إطاره الفكري، ومنهجه التصوري النظري، فقد تختلف المصلحات التي يتم من خلالها بلورت هذه الاتجاهات لكنها تصب كلها في اتجاه واحد هو اتجاه المذهب الطبيعي.

قضية العلم عند بديع الزمان النورسي لم تكن مجرد قضية فكرية يقوم بنقاشها والرد على من تبنوا بخصوصها مواقف شاذة، بل إن القضية أكبر من ذلك بكثير فهي تعني مستقبل الأمة وتعني وجودها في المستقبل، ليس هذا فحسب بل تعني مستقبل الإنسانية كلها.

لأن العلم ضرورة لا بد منها والتحكم في ضوابط العلم يعني التحكم فيما يضمن مستقبل الإنسانية ويضمن التوازن بين المدي والروحي، لأن اختلال التوازن معناه اختلال عنصر من عناصر إدراك عظمة الله تبارك وتعالى فالكون سبيل يدل على الخالق ويعرف به وبعظمته، وانحراف مسار العلم عن جادة الصواب معناه انحراف العلم عن هدف أساسي من أهدافه وهو الدلالة على الخالق، بالإضافة إلى التسخير، والتسخير مفهوم قرآنية بامتياز، لأن من وظائف العلم والمعرفة تسخير الكون، والتسخير لا يتم إلا بوساطة فهم الظواهر الكونية ومعرفتها معرفة سليمة دون انحراف، لأن هذه المعرفة السليمة من شأنها أن تقود الناس إلى معرفة الخالق، يقول: «إن التفاوتَ بين مجيئ الحيوان والإنسان إلى هذه الدنيا يدل على أن اكتمالَ الإنسانية وارتقاءها إلى الإنسانية الحقة إنما هو بالإيمان وحدَه، وذلك لأن الحيوانَ حينما يأتي إلى الدنيا يأتي إليها كأنه قد اكتملَ في عالمٍ آخرٍ، فيُرسَلُ إليها متكاملاً حسب استعداده. فيتعلم في ظرف ساعتين أو يومين أو شهرين جميع شرائط حياته وعلاقاته بالكائنات الأخرى وقوانينَ حياته...

أما الإنسان فعلى العكس من ذلك تماماً، فهو عندما يَقدِم إلى الدنيا يقدِمُها وهو محتاجٌ إلى تعلّم كل شئ وإدراكه؛ إذ هو جاهلٌ بقوانين الحياة كافة جهلاً مطبقاً، حتى إنه قد لا يستوعب شرائطَ حياته خلال عشرين سنة. بل قد يبقى محتاجاً إلى التعلم والتفهم مدى عمره. فضلاً عن أنه يُبعث إلى الحياة وهو في غاية الضَعف والعَجز حتى إنه لا يتمكن من القيام منتصباً إلاّ بعد سنتين من عمره، ولا يكاد يميّز النفَع من الضرّ إلا بعد خمس عشرة سنة، ولا يمكنه أن يحقّق لنفسه منافع حياته»[١].

وفي هذا الإطار يؤكد بديع الزمان النورسي على ضرورة الإنصات العميق لحقيقة "لا إله إلا الله" ذلك إن الإنسان لا يكون إنسانا سوى بالإيمان، يستشف من ذلك أن الإنسان بغير إيمان ليس إنسانا كاملا، بل هو مجرد شيء هائم على وجهه لا يختلف في شيء عن الحيوان.

فالوظيفة الأساسية للإنسان بعد الإيمان بالله تبارك وتعالى هي التعلم وكسب المعرفة، والاستعانة بالدعاء وإظهار العجز لقد خلق الله الإنسان وأنزله الله إلى هذا العالم الدنيوي لكي يكتمل بالعلم والمعرفة وتسخير الكون في دائرة الإيمان وإظهار العجز لله تبارك وتعالى فكل شيء في الإنسان موجه إلى العلم ومتعلق بالمعرفة حسب الماهية والاستعداد وأساس كل العلوم والمعرفة الحقيقية وبصورة عامة ونورها وروحها هو معرفة الله تبارك وتعالى[٢] وكما قالوا رأس العلم مخافة الله تبارك وتعالى.

ولذلك يلح بديع الزمان النورسي على ضرورة التمييز بين العلم بماهية الموجودات والعلم بوجودها، يقول «**الأول**: أن العادل الحكيم الذي تشهد لحكمته وعدالته الكائنات كلها، بلسان الانتظام والميزان، قد أعطى للإنسان جزءاً اختيارياً مجهول الماهية، ليكون مدار ثواب وعقاب. فكما أن للحكيم العادل حكَماً كثيرة خفية عنا، كذلك كيفية التوفيق بين القدر والجزء الاختياري خافية علينا. ولكن عدم علمنا بكيفية التوفيق لا يدل على عدم وجوده.

الثاني: إن كل إنسان يشعر بالضرورة أن له إرادة واختياراً في نفسه، فيعرف وجود ذلك الاختيار وجداناً. وان العلم بماهية الموجودات شئ والعلم بوجودها شئ آخر. فكثير من الأشياء وجودها بديهي لدينا إلا أن ماهيتها مجهولة بالنسبة إلينا. فهذا الجزء

(١) الكلمات: ص ٣٥٤
(٢) نفسه: ص ٣٥٥

الاختياري يمكن أن يدخل ضمن تلك السلسلة، فلا ينحصر كل شئ في نطاق معلوماتنا، وان عدم علمنا لا يدل على عدمه.»[١]

هذا التحليل الدقيق يبرز فيه بديع الزمان النورسي تفوقه وقدرته الكبيرة على المناقشة العقلية الدقيقة، فربط القدر بالعلم من جهة كون القدر نوعا من العلم وبكون العلم تابع للمعلوم، أي العلم بكون الشيء، إذ ليس هناك علم بدون وجود الشيء المعلوم، فلابد من معلوم لكي يكون هناك علم ومن هنا فإن المعلوم لا يكون تابعا للعلم أي إن منطق العلم ودستوره ليس أساسا لإدارة المعلوم. ولذلك فالتوحيد والنبوة ينظران إلى الحقائق بنور الألوهية والآخرة ووحدة الكون. أما العلم التجريبي والفلسفة، فينظران من زاوية الأسباب المادية.

إن القدرة الإلهية تتجلى على المصنوع من خلال أسماء الله الحسنى، فتحقق قدرته وتتجلى عظمته من خلال ذلك، ومهمة العلم هي استحضار هذه الأبعاد ضمنيا في عملية أداء العلم لوظيفة استكمال إنسانية الإنسان، لأن من أوضح محطات وصول العلم إلى مراميه وأسهلها ألا ينحرف جهة ما يشوب صفاء هذا التجلي، وصفاء الجمال الذي تجلى به الله تبارك وتعالى على كل شيء في هذا الوجود، «وهذا يعني أن الجمال الذاتي والكمال الذاتي للصانع ذي الجلال، والحكيم ذي الجمال، والقدير ذي الكمال، يريدان الترحم والتحنن، فيسوقان اسمي "الرحمن، الحنان" إلى التجلي. والترحم والتحنن يسوقان اسمي "الرحيم والمنعم" إلى التجلي، وذلك بإظهار الرحمة والنعمة معاً. والرحمة والنعمة تقتضيان شؤون التودد والتعرف وتسوقان اسمي "الودود والمعروف" إلى التجلي فيظهران على المصنوع. والتودد والتعرف يحركان معنى اللطف والكرم ويستقرآن اسمي "اللطيف والكريم"، في بعض نواحي المصنوع. وشؤون اللطف والكرم تحرك فعلَي التزيين والتنوير فتستقرىء اسمي "المزيّن المنور" بلسان حُسن المصنوع ونورانيته. وشؤون التزيين والتحسين تقتضي معاني الصنع والعناية وتستقرىء اسمي "الصانع المحسن" في السيماء الجميل لذلك المصنوع. وذلك الصنع والعناية تقتضيان العلم والحكمة فيستقرىء المصنوع اسمي "العليم والحكيم" في أعضائه المنتظمة الحكيمة. ولاشك أن ذلك العلم والحكمة تقتضيان أفعال التنظيم والتصوير والتشكيل، فيستقرىء المصنوع بشكله وبهيئته، اسمي "المصوّر المقدّر".

---

(١) الكلمات الصفحة ٥٤٥

وهكذا خلق الصانع الجليل مصنوعاته كلها، حتى يستقرئ القسم الغالب منها ولا سيما ذوي الحياة، كثيراً جداً من الأسماء الحسنى، وكأنه سبحانه قد ألبس كل مصنوع عشرين حلّة متباينة متراكبة، أو كأنه لف مصنوعه ذلك بعشرين غطاء وستره بعشرين ستاراً، وكتب على كل حلة، وعلى كل ستار أسماءه المختلفة. »[1] وعلى هذا الأساس فإن الكون والوجود كله مرآة تعكس أسماءه وصفاته بقدرة تجليها، والإنسان من هذا المنظور داخل في هذا الإطار فما وهبه الله تبارك وتعالى للإنسان من علم وقدرة وبصر وبصيرة ونظر هي مجرد نماذج جزئية لقدرته وصفاته، ولذلك فإن قضية تحصيل العلم والمعرفة التي يرتقي بها الإنسان، والتي خص بها دون سائر المخلوقات بما في ذلك الملائكة، دليل على أن علم الله أوسع، إذ لا يعقل أن يكون واهب الشيء دون الموهوب له، ويجوز أن يكون المانح فقيرا عما يمنحه، فالمنطق يفرض أن المانح يمنح مما توفر له دون حد، وهو يمنح دون أن ينقص منه ما منع أو أعطى شيء.

إن الإنسان يرتقي بالعلم والمعرفة كما سبق وأشير إليه ولذلك اعتبر بديع الزمان النورسي أن مناقشة أهل الجهل حول ضلالهم أيسر بكثير من مناقشة أهل العلم لأن الأول مستعد بجهله لأن يتلقى ويتعلم ويحصل المعرفة ويرتقي فيزول بذلك جهله وتذوب ضلالته، عكس الفريق الثاني لأن هؤلاء يحسبون أنفسهم في دائرة العلم والمعرفة مما يحجب عليهم أنوار الحقيقة فلا يتنازلون عن غيهم وضلالهم، وقد نفهم من هذا التصور أن بديع الزمان النورسي يعتبر حال الفريق الأول أحسن من حال الفريق الثاني، لأن الفريق الأول حامل لبذور الاستعداد القبلي للتحصيل العلم والترقي، في الوقت الذي يظل فيه الثاني مكان لا يرتقي ولا يتقدم فالضلالة «إن كانت ناجمة من الجهل فإزالتها يسير وسهل. ولكن إن كانت ناشئة من العلم فإزالتها عسير ومعضل. وقد كان هذا القسم الأخير نادراً فيما مضى من الزمان، وربما لا تجد من الألف إلا واحداً يضل باسم العلم. وإذا ما وجد ضالون من هذا النوع ربما يسترشد منهم واحد من الألف. ذلك لأن أمثال هؤلاء يعجبون بأنفسهم، فمع أنهم يجهلون يعتقدون أنهم يعلمون.

وإني اعتقد أن الله سبحانه وتعالى قد منح "الكلمات" المعروفة، التي هي لمعات معنوية من إعجاز القرآن الكريم خاصية الدواء الشافي والترياق المضاد لسموم زندقة هذه الضلالة في هذا العصر.»[2]

---

(١) نفسه (الكلمات٧٥٢ -٧٥٣)

(٢) المكتوبات: المكتوب الخامس ص٢٨

وعن نظرة القرآن الكريم إلى الموجودات يشير بديع الزمان النورسي رحمه الله تبارك وتعالى إلى أن القرآن يوظف الموجودات علامات تدل على الخالق ولا يوظفها لذاتها إذ لا قيمة للأشياء سوى في كونها وسيلة للدلالة على الخالق تعالى، وهذا لا ينتفي مع ذلك وجوب التعرف على خصائص الموجودات وطبائعها من جهة ما تدل عليه من عظمة الخالق وقدرة الصانع، لأن في معرفة هذه الخصوصيات والدقائق تتعمق المعرفة بالله تبارك وتعالى، فوظيفة العلم والمعرفة هي الدلالة على الله تبارك وتعالى يقول: «لأي شئ لا يبحث القرآن عن الكائنات كما يبحث عنها فن الحكمة والفلسفة؟ فَيَدع بعض المسائل مجملاً ويذكر أخرى ذكراً ينسجم مع شعور العوام وأفكارهم فلا يمسّها بأذى ولا يرهقها بل يذكرها سلساً بسيطاً في الظاهر؟ نقول جواباً:

لأن الفلسفة عَدِلتْ عن طريق الحقيقة وضلَّت عنها، وقد فهمتَ حتماً من الدروس والكلمات السابقة أن القرآن الكريم إنما يبحث عن الكائنات استطراداً، للاستدلال على ذات الله وصفاته وأسمائه الحسنى، أي يُفهم معاني هذا الكتاب، كتاب الكون العظيم كي يعرِّف خالقه.

أي أن القرآن الكريم يستخدم الموجودات لخالقها لا لأنفسها. فضلاً عن أنه يخاطب الجمهور. أما علم الحكمة (الفلسفة) فينظر إلى الموجودات لنفسها، ويخاطب أهل العلم والفلسفة.

وعلى هذا، فما دام القرآن يستخدم الموجودات دليلاً وبرهاناً، فمن شرط الدليل أن يكون ظاهراً وأظهرَ من النتيجة أمام نظر الجمهور.»[1]

تعتبر رسالة الطبيعة أهم رسالة ناقش فيها بديع الزمان النورسي رحمه الله النظرية الطبيعية، ونظرية إسناد الظواهر والأشياء إلى الأسباب، والمتتبع لهذه الرسالة يلاحظ أن مناقشته لتلك الأفكار قد كانت على مستوى كبير جدا من العمق والدقة والعلم والمعرفة، يشرح بديع الزمان النورسي في البداية هذه الرسالة أن الدافع إلى كتابة الرسالة هو رائحة الكفر التي تفوح من أفواه الناس، مؤكدا رغبته في إبطال تلك الرؤى

(١) المكتوبات: ص ٢٦٩

والتصورات، يقول عن الرسالة[١]: «فهي تُبيد تيار الكفر النابع من مفهوم "الطبيعة" إبادة تامة وتُفتّت حجر زاوية الكفر وتحطّم ركيزته الأساس.»[٢]

ويقول: «كيف ارتضى فلاسفة مشهورون وعلماء معروفون بهذه الخرافة الفاضحة وسلّموا لها زمام عقولهم؟!

والجواب: أن أولئك لم يتبينوا حقيقة مسلكهم، ولا باطن مذهبهم، ولم يدركوا ما يقتضيه مسلكهم من "محالات" وما يستلزمه مذهبهم من أمور فاسدة وممتنعة عقلاً، والتي ذكرت في بداية كل محال يرد في هذه الرسالة.

وأنا على استعداد كامل لإقامة البراهين الدامغة ونصب الحجج البديهية الواضحة لإثبات ذلك لكل مَن يساوره الشك، وأبينها لهم بإسهاب وتفصيل.» [٣]

لماذا ألف بديع الزمان النورسي رسالة الطبيعة؟ قد يبدو السبب المباشر لذلك هو ما قاله بديع الزمان النورسي نفسه حين زيارته إلى أنقرة يقول:

«دعيتُ لزيارة "انقرة" سنة ١٣٣٨(١٩٢٢م) وشاهدت فرح المؤمنين وابتهاجهم باندحار اليونان أمام الجيش الإسلامي، إلاّ أنني أبصرتُ - خلال موجة الفرح هذه - زندقة رهيبة تدب بخبث ومكر، وتتسلل بمفاهيمها الفاسدة إلى عقائد أهل الإيمان الراسخة بغية إفسادها وتسميمها.. فتأسفتُ من أعماق روحي، وصرختُ مستغيثاً بالله العلي القدير ومعتصماً بسور هذه الآية الكريمة، من هذا الغول الرهيب الذي يريد أن يتعرض لأركان الإيمان، فكتبت برهاناً قوياً حاداً يقطع رأس تلك الزندقة، في رسالة باللغة العربية واستقيت معانيها وأفكارها من نور هذه الآية الكريمة لإثبات بداهة وجود الله سبحانه ووضوح وحدانيته».[٤]

يكشف هذا الكلام عن حسرة بديع الزمان النورسي العميقة مما رآه وسمعه في أنقرة وهي آنذاك عاصمة الداعين إلى العلمانية وإلغاء الخلافة الإسلامية، فقد استنتج

---

(١) وردت هذه الرسالة في اللمعات اللمعة السادسة والعشرون، ونظرا لأهميتها قالم المشرفون على مركز رسائل النور بطبعها مستقلة في كتيب.

(٢) كليات رسائل النور، اللمعات، اللمعة السادسة والعشرون: ٢٦٥

(٣) نفسه:ص٢٦٦

(٤) نفسه: ص٢٦٧ (وانظر، رسالة الطبيعة، دار سوزلر للطباعة والنشر، ط١/ ١٩٧٨: ص٥)

من ضمن ما استنتج أو واقع العلم والمعرفة واقع عصيب فقد جرى قطعهما عن الإيمان والدين، وأصبحت الفلسفة الطبيعية هي الحكم والعقل المادي هو الدستور الذي يحتكم إليه ويرجع، وبعبارة أخرى لقد أرست الحداثة بمفهومها الغربي ثوابتها ومن أهم هذه الثوابت، ثابت التفكير المادي وإلغاء الدين عن مجالات الحياة المختلفة كالتعليم والعلم والفكر والسياسة وغيرها، ومن عنا فإن السبب غير المباشر وغير المعلن، الذي دفع بديع الزمان النورسي إلى تأليف الرسالة هو أن بديع الزمان النورسي كان مسكونا بهاجس الإصلاح والتصحيح وبهاجس التغيير، وخاصة ما تعلق بتغيير العقليات وأنماط التفكير وهو العمل الذي قام به فعليا أعداء الأمة وخاصة الغرب، من خلال عملائهم ومن خلال المستلبين فكريا والمعجبين الحياة الغربية. فبديع الزمان النورسي كان يعلم أن الأمر لا يتعلق بمجرد كلام يردد هنا أو هناك أو من قبل أفراد قلائل بل إن الأمر يتعلق بتيار واسع وبنمط تفكيري يخل بكل أسس الوحدة الفكرية للأمة، يقول د. عبد الكريم عكيوي «تنبه الشيخ بديع الزمان بديع الزمان النورسي إلى مسألة طارئة مختلقة ... فعلى امتداد التاريخ الإسلامي، لم يخطر ببال أحد من علماء الإسلام ولا جرى على لسانه أن الوحي مناقض لحقائق الكون والحياة والإنسان، التي يكشف عنها العقل البشري، ويهتدي إليها الإنسان من خلال العلوم المادية والتجريبية التي تعتمد على تراكم الخبرة وزيادة اللاحق على السابق. حتى إذا جاء العصر الحديث - وبعد عصور الركود التي ركن فيها المسلمون إلى التقليد ومنهج التواكل والفكر الخرافي، ثم حصول النهضة الأوربية واقتحام الفكر الغربي وحضارة الغرب وثقافته للبلاد الإسلامية وبسط العلم المادي التجريبي سلطانه - نبتت في العقول كثير من أهل الثقافة والفكر المسلمين نبتة غريبة، فصاروا يعتقدون أن الوحي (القرآن والسنة النبوية الصحيحة) والعلوم الحديثة ضدان لا يلتقيان حتى يطرد أحدهما الآخر».[1]

إن نظرة بديع الزمان للعلم والمعرفة فصلها عن مشروعه الإصلاحي كما ذكرنا سابقا مشروع بديع الزمان النورسي مشروع للمستقبل، فقد كان يعلم من خلال ما آتاه الله تبارك وتعالى من فتح، ولكونه رجل العصر والوقت وأستاذ القرن[2] كما أطلق عليه الدكتور محمد خروبات كان يملك القدر على استطلاع المستقبل، يلمس ذلك في

(١) أسس الوحدة الفكرية عند بديع الزمان بديع الزمان النورسي، شركة سوزلر للنشر، ط١/٢٠٠٤ : ص٢٥ - ٢٦.

(٢) أنظر كتابه خلاصة في نقد الفكر الطبيعي، ط١/ مارس ٢٠٠٢.

نصوص عديدة كالخطبة الشامية حيث يلح بديع الزمان النورسي في أكثر من مكان منها على أن المستقبل للإسلام من خلال الإلحاح على أن العالم الإسلامي، سيعرف نهضته المرتقبة خلال ثلاثين أو أربعين سنة المقبلة كما أشار في الخطبة ولذلك فهو يلح على ضرورة توفير الشروط اللازمة لذلك، يقول: «إنه بناء على ما تعلمته من دروس الحياة، يسرّني أن أزفّ إليكم البشرى يا معشر المسلمين، بأنه قد أَزِفَ بزوغ أمارات الفجر الصادق ودنا شروق شمس سعادة عالم الإسلام الدنيوية وبخاصة سعادة العثمانيين، ولاسيما سعادة العرب الذين يتوقّف تقدم العالم الإسلامي ورقيّه على تيقظهم وانتباههم، فإنني أعلن بقوة وجزم، بحيث أُسمع الدنيا كلها وأنفُ اليأس والقنوط راغم:

إن المستقبل سيكون للإسلام، وللإسلام وحده. وإن الحكم لن يكون إلاّ لحقائق القرآن والإيمان. لذا فعلينا الرضى بالقدر الإلهي وبما قسّمه الله لنا؛ إذ لنا مستقبل زاهر، وللأجانب ماضٍ مشوش مختلط.»[١]

ولتحقق ذلك لا بد من الأخذ بالأسباب التي توصل إلى هذا الهدف السامي والعظيم والأسباب كثير وواضحة في ذهن بديع الزمان سعيد النورسي في مشروعه الإصلاحي، وتبدأ بالأخذ بالعلم الصحيح والمعرفة السليمة، شريط ضبط كل ذلك بالضوابط التي تسدد المسير وتوجه الخطى وتحمي من الوقوع في المحظور وفي الزلل، وتمنع عنه الانحراف عن المسار الصحيح الواجب له بما يعود بالفائدة على الإنسانية كلها ماديا ومعنويا.

المستقبل له أسس ينبغي بناؤها على أسس سليمة وصحيحة وأهم الأسس الدنيوية هو أساس العلم والمعرفة وما رآه النورسي حين زيارته لأنقرة كشف له عن عدم وضوح الأفق في ظل نمط التفكير السائد آنذاك ولذلك توجبت الدعوة إلى تصحيح المسار فكانت رسالة الطبيعة، فهذه الرسالة ألفت من أجل التصحيح لا من أجل الإلغاء أي إلغاء ضرورة العلم بل إن العلم ضرورة لا بد منه وبديع الزمان سعيد النورسي يعلم علم اليقين بأن العلم سيحكم العالم يقول:« إن البشرية في أواخر أيامها على الأرض ستنساب إلى العلوم، وتنصب إلى الفنون، وستستمد كل قواها من العلوم والفنون فيتسلم العلم زمام الحكم والقوة.»[٢] ومن فإن النورسي يرى أن من واجب المؤمنين

(١) الكليات: صقيل الإسلام، الخطبة الشامية: ص٤٩٢.

(٢) الكلمات: ص٢٩٢.

الأخذ بأسباب العلم لكن من زاوية سليمة هي الزاوية الإيمانية، وهنا يكمن عمق المشروع الإصلاحي الذي يؤمن به بديع الزمان النورسي.

وإضافة إلى الأسباب السابقة والعلل السالفة التي دفعت النورسي إلى تأليف رسالة الطبيعة نجد سببا آخر هو الهجوم على القرآن الكريم وهو خطر جسيم، وهنا يطرح السؤال لماذا الخوف على القرآن الكريم والجواب هو أن بديع الزمان النورسي يدرك أن روح القرآن هي الضامن المنهجي لتحقيق المعرفة الصحيحة، فالمستقبل بغير نور القرآن الكريم مستقبل قاتم ولذلك لابد من جعل الحقائق القرآنية هي الحقائق الكبرى، فالمسار التصحيح بل وإعادة البناء الذي يتطلع إليه بديع الزمان النورسي رحمه الله يحتاج إلى ثوابت وهي تبدأ بالقرآن ومن القرآن، والذين سعوا إلى إرساء الإلحاد والفكر المادي والفلسفة الطبيعية، إنما بدأوا بالدعوة إلى ضرورة فصل المسلمين عن قرآنهم، يقول الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله تبارك وتعالى: «القرآن هو سر نجاح بديع الزمان النورسي في دعوته التجديدية، رغم الظروف العصيبة التي اكتنفتها ولا تزال! إن هذا الرجل الذي خرج تربويا من رحم التصوف، ليعلن للعالم بعد نظر بصير بالزمان والإنسان، فيقول للدعاة والمربين بكل قوة: (إن هذا الزمان ليس زمان الطريقة الصوفية! بل زمان إنقاذ الإيمان) ولم يكن مشروع (إنقاذ الإيمان) عنده غير سلوك سبيل (المعراج القرآني) وتلقين ذلك لعموم المسلمين».[1]

إن تصحيح المسار بصفة عامة وخاصة تصحيح مسار العلم والمعرفة يمر عبر تجديد التربية للأجيال - كما يقول فريد الأنصاري - على أساس القرآن الكريم وبرنامجه في بناء الإنسان وأسلمة المعرفة، في أفق تحمل مسؤولية إعمار الأرض.

إن العنصر المركزي في رؤية الأستاذ بخصوص المعرفة والعلم هي الجمع بين الرؤية الدينية الإيمانية والرؤية العلمية، لا مجال عند النورسي للسير برجل واحدة، إذ لا بد من الأمرين معا، كل جانب أو طرف يعضد الآخر ويقيه ويقويه، ومن هنا فإن موقف النورسي من المدنية الحديثة وخاصة في شكلها الغربي، موقف عقلاني حيث لا يرى مانعا من الانفتاح عليها شريطة معرفة مساوئها من أجل الابتعاد عنها، ومعرفة محاسنها

---

(١) مفاتيح النور، نحو منهج للمصطلحات المفاتيح لكليات رسائل النور لبديع الزمان النورسي، منشورات مركز رسائل النور، استانبول/ تركيا ومعهد الدراسات المصطلحية، ظهر المهراز/فاس، ط١/٢٠٠٤: ص ٢٧٥.

من أجل الانتفاع بها من زاوية أن الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو الأولى بها، ومن ثمة فلكي تكون هذه القدرة على تمييز الحسن من السيئ ينبغي تحصين الإنسان، والتحصين منهجه محدد في القرآن الكريم وضوابطه هي ضوابط الشرع، ومظاهره التطبيقية، يقول النورسي «ضياء القلب هو العلوم الدينية، ونور العقل هو الفنون المدنية وبامتزاجهما تتجلى الحقيقة وبافتراقها تتولد الحيل والشبهات في هذا والتعصب الذميم في ذلك»[١] فالعين التي ينظر بها هي العقل، فالعقل هو الذي يعين البصر وفق شروط طبيعية جهز الله بها كل إنسان، لكن هذا النظر إذا لم يهيئ له المجال المناسب للرؤية السليمة والصحيح فإنه لن يرى شيئا وإذا رأى فإن المنظور سيكون مشوها ومليئا بالمعيقات التي ستؤدي لا محالة إلى حصيلة عليلة تضر ولا تنفع، لكن إذا كان هذا في محيط مساعد ومهيإ بالأسلوب الأمل فإن هذا كله يعين على الظزر السليم وحتى المنظور سيكون كاملا المعالم وغير ومشوه، وبالتالي فالحكم على حقيقة هذا المنظور تكون عادلة وطبيعية، وحتى النتائج المنتظرة ستكون سليمة بإذن الله تبارك وتعالى، ويقول الدكتور إبراهيم أبو محمد: «لذلك يتأكد دور الشريعة السماوية في حماية العقل من الشرود وتزوده بالرؤية الممتزجة بالبصيرة، فإذا اجتمع الشرع والعقل فذلك نور على نور، نور البصر ممثلا في العقل البشري، ونور الوحي ممثلا في شريعة الله السماوية، ومن امتزاج النورين معا تتوالد الشرارة التي تحفز العقل والفهم الناضج، وتتكامل في رؤيته الأبعاد كلها، فتأتي أحكامها مصحوبة بالاستقامة المستمدة من استقامة الشريعة»[٢]

عنصران أساسيان يلخصان هذا التصور عند الأستاذ بديع الزمان النورسي أسماء الله الحسنى وصفاته تعالى التي تجلى بها في الكون وإحصاءها من خلال تأمل الكون هو الذي يؤدي إلى فهم الكون والطبيعة وفهم الظواهر بمختلف أشكالها، ثم تسخير ذلك، وأما العنصر الثاني فهو معنى "لا إله إلا الله" لنتأمل كلام أحد المهتمين بالرسائل وبفكر بديع الزمان النورسي الذي تصحح إسلامه وتقوى عندما تعرف على رسائل النور واستوعبها، يقول الدكتور كولن تورنر: «يبين بديع الزمان في رسالة (الطبيعة) بكل وضوح أن جميع المخلوقات في مختلف مستوياتها مرتبطة بعضها مع بعض الآخر بعلاقات متداخلة ومتشابكة كالدوائر المتحدة المركز، أو كالدوائر المتقاطعة، وهو يشير

(١) كليات رسائل النور، المثنوي العربي النوري: ص١٣.

(٢) التعليم في ضوء فكر سعيد النورسي، سوزلر للنشر، ط١/ مصر٢٠٠٢: ص٣١.

إلى أن المخلوقات تبدو وكأنها جاءت إلى الوجود من العدم، وفي أثناء حياته القصيرة يقوم كل مخلوق حسب ما كلف به من وظائف وغايات خاصة به... بوظيفة المرآة التي تنعكس عليها مختلف الصفات الإلهية ومختلف الأسماء الحسنى...

والماديون يرون أن الأسباب هي التي أنتجت - وذلك من خلال القوانين التي ظهر من العدم!! - كل مظاهر الدقة والتناغم والتوازن والنظام والجمال التي نراها من حولنا».[١]

فعبارة التوحيد المطلقة "لا إله إلا الله" ينبغي ترديدها بكل ما تتضمنه من عمق معنوي وروحي، فهذه العبارة تحمل في عمقها الجواب الحاسم لكل الأسئلة وغيرها. وتأمل هذه العبارة بالصورة التي يطلع إليها بديع الزمان سعيد النورسي تقود إلى فهم معنى التوحيد الحقيقي الذي عندما يتمكن من الإنسان وعندما يتمكن من عقله، يصير ثريا تضيئ سماء العلم والمعرفة، وعندما يصير ذلك كله تتحقق البشرى التي يبشر بها الله تبارك وتعالى في قول ﴿وقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ والصالحون هم المؤمنون الذين يقتحمون كل الساحات والمجالات التي تحقق سعادة الإنسانية في الدنيا والآخرة، فالقضية تبدأ بالتأمل والتدبر، ومن التدبر تحصل المعرفة، وبالمعرفة يتحقق التصديق، ومن التصديق يتحصل الإيمان الصحيح والاعتقاد الراسخ، ثم يحصل التسليم، «وما دامت كل دقيقة جديدة، وكل يوم جديد يرينا جوانب جديدة وملامح جديدة من الحقيقة الإلهية فإن هذه العملية تكون عمليات مستمرة ومتجددة... الإيمان في حركة... أي يزداد وينقص، وذلك حسب العمليات التي سبق وأن ذكرتها، لذا فإن علينا أن نركز اهتمامنا على حقيقة الإيمان...هذه الحقيقة التي ستتبعها حقيقة الإسلام».[٢]

لقد قام النورسي بثورة كبيرة لكنها ثورة هادئة وليست ثورة صاخبة فهي - كما يرى كولن تورنر - ثورة في العقل وفي القلب وفي الروح، وهي ثورة إيمانية وليست ثورة إسلامية.[٣] فالقضية تتعلق بالقلب الذي هو بمثابة النواة بالنسبة لثمرة الإنسان، فالقلب

---

(١) ثورة الإيمان، مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية، ترجمة محمد علي أورخان، ص ص ٧ - ١٨، العدد الأول، يناير ٢٠١٠: ص١٠-١١

(٢) ثورة الإيمان: ص١٣ ـ ١٤.

(٣) نفسه: ص١٧.

السليم لا يقبل إلا الواحد الأحد، لأن لهذا القلب ماء هو الإسلام وضياء هو الإيمان، بل هو مرآة الأحد الصمد، لكنه في الوقت نفسه يتحسس ما يتجلى فيه، ويحيى بتلك التجليات ويقتات عليها ويرتوي، بل يغذي كل الجوارح الأخرى التي تكون كيان الإنسان المعنوي والمادي، وخاصة العقل، فإذا لم يكن هنا اتصال بين القلب والعقل كان العقل كالهائم على وجهه لا يعرف لمنطلقه هدفا ولا مرمى ومن السهل أن يغرق نفسه في المهالك التي ترديه وتردي معه عقولا أخرى، وتحرمهم من بهجة التمتع بلذة الاتصال بالله تبارك وتعالى، تقول جديجة النبراوي: «لا لذة للقلب حقيقة فيما لا دوام فيه.. والدليل على أن القلب ما خلق للاشتغال بأمور الدنيا قصدا، أنه إذا تعلق بشيء، تعلق بحق بشدة، واهتم به اهتماما عظيما، ويتطلب فيه أبدية ودواما، ويفنى فيه فناء تاما.. فيصير كالصنم بالنسبة له.. ولما كان القلب مرآة الصمد، فإن المرآة وظيفتها انعكاس صورة الأنوار.... لذلك فإن عشق الكائنات الفانية يسبب للقلب عذابا أليما..أما توجه القلب إلى الله: ففيه الملجأ والمنجأ للروح الذي ضاقت عليه الأكوان»[١].

ويرى مولانا جلال الدين الرومي أستاذ بديع الزمان النورسي المعنوي أن القلب هو مركز كينونة الإنسان الكلية وموضع وعيه ووجدانه فالقلب هو مكان التفكر في الله ومرآة النظر إلى الله تبارك وتعالى ومستقر هذا النظر، فإذا دأب الإنسان على صقل هذه المرآة صقلا صحيحا حتى تصير نقية شفافة «فإنه سيرى صورا تفوق بكثير إطار الماء والطين».[٢]

الإيمان بالله تبارك تعالى يستقر في القلب أي في قلب المؤمن، ويمكن أن نتصور العالم والعارف (من المعرفة) صاحب القلب كيف يتمكن من توظيف العقل انطلاقا من هذا الإيمان المستقر في قلبه الحي.

الخلاصة الدقيقة التي يمكن الخروج بها هي أن العقل باعتباره جهازا إنسانيا ميز الله به أسما المخلوقات وهو الإنسان، وجعله أسما الأجهزة وأرقاها شريطة استعماله بسر التوحيد، فإذا تحقق ذلك صار العقل مفتاحا يفتح أدق الكنوز الإلهية وأسماها ويفتح أعقد الكنوز الكونية، يقول: «العقل الذي هو أفضل أجهزة الإنسان أرقاها، إن استعمل بسر التوحيد، فانه يصبح مفتاحاً ثميناً بحيث يفتح الكنوز الإلهية السامية وألوفاً من

(١) مشكلات عقلية وقلبية للإنسان، شركة سوزلر للنشر، ط٢ مصر/٢٠٠٤: ص١٤

(٢) جلال الدين الرومي، المثنوي:ج٢ ص٧٢.

خزائن الكون، بينما إذا تخبط ذلك العقل في وحل الضلالة والكفر فانه يصبح آلة تعذيب ووسيلة إزعاج، بما يجمع من آلام الماضي الحزينة ومخاوف المستقبل الرهيبة.»[١] وما يؤيد هذا الذهب هو العديد من الآيات القرآنية يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُم قُلوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أو ءاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنّها لاَ تعْمى الأَبْصَار وَلَكِن تَعْمَى القُلُوب الّتِي فِي الصُّدُور﴾ (الحج: ٤٦)، ويقول تبارك وتعالى كذلك: ﴿وَمِنْ آيَاتِه خَلقِ السَّمَاواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إنّ فِي ذَلِك لَآيَات لِلعَالمِين﴾ (الروم: ٢٢)

يؤكد النورسي بأن تواصل القلب والعقل وانسجامهما يكتمل بنور الإيمان، فالإيمان هو ما يحقق التوازن بينهما بالنسبة لحياة الإنسان «أجل! إن الإيمان يقيم دائماً في القلب والعقل حارساً معنوياً أمينا، لذا كلما صدرت ميول فاسدة عن تطلعات النفس والنوازع والأحاسيس المادية قال لها ذلك الحارس الرادع: محظور.. ممنوع.. فيطردها ويهزمها.

إن أفعال الإنسان إنما تصدر عن متمايلات القلب والمشاعر وهي تنبعث من شدة تحسس الروح وحاجتها، والروح إنما تهتز بنور الإيمان، فان كان خيراً يفعله الإنسان، وإلاّ يحاول الانسحاب، وعندئذٍ لا تغلبه النوازع والأحاسيس المادية التي لا ترى العقبى!»، فالحياة لابد لها من التوازن بين العقل والقلب من أجل الوصول إلى الكمال، ومشروع النورسي بصفة عامة مشروعه الحضاري الإصلاحي ارتكز على إرشاد الناس إلى كيفية صقل القلب وضبط إيقاع العقل انطلاقا من الإيمان الراسخ بالله تبارك وتعالى من أجل مصلحة الإنسان في الدنيا والآخرة، بل إن النورسي يؤكد بأن هذا المنهج هو منهج القرآن الكريم، وهو منهج العلماء السابقين كالإمام الغزالي والإمام الرباني وجلال الدين الرومي، وغيرهم فقد اختاروا جميعا الربط بين القلب والعقل في رحلة الحقيقة، بل إن النورسي يعتبر كل هؤلاء أهل الحقيقة لكونهم جمعوا بين القلب والعقل، يقول بلال قوشبنار «وبمعنى آخر لقد كان هذا التوازن بين العقل والقلب هو الذي زودهم بمفهوم يتسم بنفاذ البصيرة جاعلا منهم غير مغالين ويقظين وأتاح لهم كذلك رؤية الأشياء وهي تشير وتدلل على وحدانية الله».[٢]

---

(١) الشعاعات: ص١٩

(٢) مفهوم الإنسان، ضمن كتاب الإسلام على مفترق الطرق، ص ص ١٨٢ - ١٩٩، حرره وقدم له الدكتور إبراهيم أبو الربيع، نقله إلى العربية، محمد فاضل، سلسلة دراسات في رسائل النور، سوزلر للنشر: ص١٩٢.

بقي أن ننظر في الطرف الثالث في معادلة العلم والإيمان والأخلاق، فلقد تمت الإشارة في مكان سابق من هذا البحث إلى أن الانسجام بين العقل والقلب لا يكتمل إلا بالإيمان، وأشرنا كذلك إلى أن ضبط الانسجام بين العقل والقلب لابد له من القرآن الكريم بل إن منهج هذا الضبط موجود في القرآن الكريم بل هو القرآن الكريم، وللنورسي نظرة متميزة وخاصة للقرآن الكريم من جهة كونه كلام الله تبارك وتعالى، الذي توجه به إلى البشر بصفة عامة والمؤمنين بصفة خاصة، ومن جهة المظهر العملي للأخلاق الإنسانية السامية والمتجلية في سيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ومن أهم ما يعرف به النورسي القرآن الكريم كونه «المربي للعالم الإنساني»[1] إذ يدل هذا الكلام على أن أحد أبعاد القرآن الكريم الكثيرة كونه منظومة أخلاقية بامتياز، فارتباط العلم بالإيمان لابد له من ثريا تجمله، وهذه الثريا هي الأخلاق، ووجود الأخلاق في دائرة العلم والمعرفة يعني التجمل بنور القرآن وأخلاقه، وعندما يؤكد النورسي بكل قوة ويرد على كلام جلادستون بأن القرآن شمس لا يخبو نورها، يبني رده على أساس أن العلم والمعرفة ينبغي أن يسترشدا بالقرآن الكريم وبأخلاقه، وهو المسار الوحيد الذي كان النورسي يعمل على تركيزه في المجتمع التركي أولا، ثم المجتمع الإنساني عامة، فتصحيح مسار العلم والمعرفة يكون بتمثل أخلاق القرآن، التي يؤيدها العقل والمنطق، وهذا هو مدار المشروع الإصلاحي للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، وانطلاقا من هذا المنظور فإن العلم الذي سيتأسس من خلال الرؤية التي يتطلع إليها النورسي ومن خلاله كل مؤمن، والمجتمع المؤمن كله علم يتطلع إلى الخير ولا يقرب مجال الشر لأنه يسترشد بكل ما يمنعه من ذلك، وعلينا أن ننظر في الحال الذي آل إليه جزء كبير من العلم السائد في عالم اليوم الذي دفعه تعلقه بالأسباب وإلغاؤه للإيمان والأخلاق عن دائرته إلى توريط الإنسانية في اختراعات تجلب الدمار الشامل للإنسانية بالإضافة إلى ما تلحقه بالبيأة وغيرها من إفساد وهدم وتشويه الأمر الذي صار يهدد مستقبل الإنسانية، وبكلام آخر إن طريق العلم والمعرفة هو التعبد وهذا المفهوم قائم على المحبة، وجوهر الأخلاق هو المحبة، ومن هنا كذلك فإن الفرق بين العلم المتحلي بالإيمان والآخذ بالأخلاق، أي بالقرآن الكريم، والعلم الأخذ بالأسباب والمرجع كل شيء إلى الطبيعة، كالفرق بين الفلسفة والشريعة، حيث إن هدف الفلسفة

(١) أنظر، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز: ص٢٢، والمكتوبات: ص٢٦٧

هو المنفعة بينما تهدف الشريعة إلى الفضيلة والفضيلة من شأنها المودة والتجاذب، يقول «المدنية التي تتضمنها الشريعة الأحمدية وتأمر بها:

فان نقطة استنادها: الحق بدلاً من القوة، والحق من شأنه: العدالة والتوازن.

وهدفها: الفضيلة بدلاً من المنفعة، والفضيلة من شأنها: المودّة والتجاذب..»[١]

الجمال والمحبة أمران متلازمان، ولقد تسلسل الكون بشعاع «المحبة الصادر عن جمال الأسماء الحسنى»،[٢] فالعلم عندما ينظر بمنظار الجمال، ومنظار المحبة يستحيل عليه الانحراف إلى جهة ما يضاد هذه المحبة وهذا الجمال.

لائحة المصادر والمراجع

المصادر

- القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع
- كليات رسائل النور، بديع الزمان سعيد النورسي، تر: إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة، ط ٣، ٢٠٠٠.

المراجع

- **أسس الوحدة الفكرية عند بديع الزمان بديع الزمان النورسي**، الدكتور عبد الكريم عكيوي، شركة سوزلر للنشر، ط١/٢٠٠٤
- **الإسلام على مفترق الطرق**، حرره وقدم له: الدكتور إبراهيم أبو الربيع، نقله إلى العربية، محمد فاضل، سلسلة دراسات في رسائل النور، سوزلر للنشر، القاهرة، ط١/٢٠٠٥.
- **بحوث المؤتمر السادس**، لبديع الزمان سعيد النورسي، العولمة والأخلاق في ضوء رسائل النور، نسل للنشر، إسطنبول ٢٠٠٤

---

(١) المكتوبات: ص٦٠٧

(٢) د. فريد الأنصاري، الكونية الأخلاقية بين علوم القرآن وعلوم الإنسان، بحوث المؤتمر السادس، لبديع الزمان سعيد النورسي، العولمة والأخلاق في ضوء رسائل النور، ص ص ٢٠١ ـ ٢٣٤، نسل للنشر، إسطنبول ٢٠٠٤: ص٢٠٩.

- **التعليم في ضوء فكر سعيد النورسي**، الدكتور إبراهيم أبو محمد، سوزلر للنشر، القاهرة، ط١/ مصر٢٠٠٢:
- **خلاصة في نقد الفكر الطبيعي**، الدكتور محمد خروبات، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط١/ مارس ٢٠٠٢.
- **مشكلات عقلية وقلبية للإنسان**، خديجة النبراوي، شركة سوزلر للنشر، القاهرة ط٢ /٢٠٠٤
- **المثنوي**، جلال الدين الرومي، ترجمة وشرح الدكتور إبراهيم الدسوقي، الهيأة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة ١٩٩٦.
- **مفاتيح النور**، نحو منهج للمصطلحات المفاتيح لكليات رسائل النور لبديع الزمان النورسي، الدكتور فريد الأنصاري، منشورات مركز رسائل النور، استانبول/تركيا ومعهد الدراسات المصطلحية، ظهر المهراز/فاس، ط١/٢٠٠٤

المجلات:

- مجلة النور للدراسات الحضارية والفكرية
- مجلة الوعي الإسلامي، مجلة كويتية شهرية جامعة